

(٨)

أصل تأويلات الصفاتية

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. أما بعد:

قال شيخ الإسلام رحمه الله: ((وَهَذِهِ التَّأْوِيلَاتُ الْمَوْجُودَةُ الْيَوْمَ بِأَيْدِي النَّاسِ مِثْلُ أَكْثَرِ التَّأْوِيلَاتِ الَّتِي ذَكَرَهَا أَبُو بَكْرٍ بْنُ فُورِكَ فِي كِتَابِ " التَّأْوِيلَاتِ " وَذَكَرَهَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ الرَّازِيُّ فِي كِتَابِهِ الَّذِي أَسْمَاهُ " تَأْسِيسَ التَّقْدِيسِ " وَيُوجَدُ كَثِيرٌ مِنْهَا فِي كَلَامِ خَلْقٍ غَيْرِ هَؤُلَاءِ مِثْلِ أَبِي عَلِيٍّ الْجُبَّائِيِّ، وَعَبْدِ الْجَبَّارِ بْنِ أَحْمَدَ الْهَمْدَانِيِّ، وَأَبِي الْحُسَيْنِ الْبَصْرِيِّ، وَأَبِي الْوَفَاءِ بْنِ عَقِيلٍ، وَأَبِي حَامِدِ الْغَزَالِيِّ، وَغَيْرِهِمْ، هِيَ بَعِيْنَهَا التَّأْوِيلَاتُ الَّتِي ذَكَرَهَا بَشْرٌ الْمَرْيَسِيُّ الَّتِي ذَكَرَهَا فِي كِتَابِهِ، وَإِنْ كَانَ قَدْ يُوجَدُ فِي كَلَامِ بَعْضِ هَؤُلَاءِ رَدُّ التَّأْوِيلِ وَلَهُمْ كَلَامٌ حَسَنٌ فِي أَشْيَاءَ).

نعم أفاد الشيخ رحمه الله بأن التأويلات التي ذكرها المعتزلة ورأسهم بشر بن غياث المريسي تسللت إلى الصفاتية وهم قوم ظهروا في المائة الثالثة وهم يرون أن الأصل إثبات الصفات ولكنهم أشكل عليهم بعض شبهات المعتزلة فيما يتعلق بالصفات الخبرية والفعلية فقبلوا تأويلات المعتزلة ومثل لهم الشيخ بأبي بكر بن فورك، وأبو بكر بن فورك من أصحاب أبي الحسن الأشعري، وقد ألف كتابًا بعنوان: التأويلات، حشد فيه جملة من تأويلات الصفات الخبرية والفعلية، وبين الشيخ بأن هذا الذي ذكره أبو بكر بن فورك إنما هو مستمد من تأويلات بشر المريسي، من تأويلات المعتزلة، فهم - في الحقيقة - امتداد لهم، وإن كانوا لا يوافقونهم في كل شيء.

وكذلك الرازي المفسر المشهور صاحب التفسير الكبير، فإنه أيضًا ما يذكره من تأويلات إنما استمده من تأويلات بشر المريسي، سواء في تفسيره أو في كتابه المشهور: تأسيس التقديس. ناهيك عن بقية المعتزلة كأبي علي الجبائي وعبد الجبار الهمداني صاحب الأصول الخمسة وأبي الحسين البصري وغيرهم، وأما أبو الوفاء بن عقيل فهو في عداد الحنابلة، لكنه مال إلى مذهب المعتزلة، فإن أبا الوفاء بن عقيل كان بعض مشايخه مالوا - وهو أبو يعلى الفراء - مالوا إلى التفويض، وكان أبو الوفاء بن عقيل من أذكياء العالم كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية، فرأى أن في طريقة شيخه أبي يعلى ما لا يقبله العقل، فلذلك نزع إلى التأويل وأخذ بطريقة المعتزلة، ثم جاء بعد أبي الوفاء بن عقيل ابن الجوزي، فاضطرب لما رأى أن طريقة الحنابلة الإثبات وطريقة أبي الوفاء بن عقيل تنزع إلى مذهب المعتزلة صار يوافق الأشاعرة، فاضطربت مقالاتهم في هذا.

ومقصود الشيخ أن هذه التأويلات التي يرددها الناس إنما هي مستمدة من مقالة المعتزلة وتحديدًا بشر بن غياث المريسي، وإن كان يوجد في بعض كلامهم ما هو حسن كما قال ابن تيمية. وهذه جملة تدل على إنصاف ابن تيمية في

تقويم الرجال والطرق، تأملوا قوله: وإن كان قد يوجد في كلام بعض هؤلاء رد التأويل وإبطاله أيضاً، ولهم كلام حسن في أشياء. هذا من منهج الإنصاف الذي يجب أن يتحلى به طالب العلم، وهو ألا يرد الكلام جملة، بل يثبت ما فيه من حق، ويرد ما فيه من باطل، فالشيخ ذكر هذه المقالات وهذه الأسماء ليفرز الحق من الباطل ويبين استمداد مقالة التعطيل وكيف تسلت إلى الصفاتية.

والصفاتية كما أسلفت تعني قوماً أصلهم الإثبات، فهم مناقضون للصفات في أصل مذهبهم، لكنهم وقعوا في التأويل والنفي في الخبرية والفعلية، ويتناول لفظ "الصفاتية" طريقة الحارث بن أسد المحاسبي وطريقة أبي العباس القلانسي وطريقة أبي الحسن الأشعري وطريقة عبد الله بن سعيد بن كلاب - وهو سابق لهم - وهم الكلابية، وطريقة أبي منصور المائريدي، كل هؤلاء يقال عنهم: صفاتية، وهم يظنون أنهم على طريقة السلف، نعم يعظمون السلف ويشغلون بالحديث لكنهم لم يتقنوا طريقة السلف حقاً إذ أن طريقة السلف الإثبات وعدم التأويل والتحريف ويسوقون - أي السلف - الكلام سوقاً واحداً في صفات الله تعالى كلها، ما كان منها معنوياً وما كان ذاتياً وما كان خبرياً وما كان فعلياً، لا يفرقون بينها، بل يسوقون فيها الكلام سوقاً واحداً.

ثم قال رحمه الله: ((فَإِنَّمَا بَيَّنَّتْ أَنَّ عَيْنَ تَأْوِيلَاتِهِمْ هِيَ عَيْنُ تَأْوِيلَاتِ الْمَرِيْسِيِّ، وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ كِتَابُ الرَّدِّ الَّذِي صَنَفَهُ عُثْمَانُ بْنُ سَعِيدِ الدَّارِمِيِّ أَحَدَ الْأَيْمَةِ الْمَشَاهِيرِ فِي زَمَانِ الْبُخَارِيِّ، صَنَّفَ كِتَابًا سَمَّاهُ: "رَدُّ عُثْمَانَ بْنِ سَعِيدٍ عَلَى الْكَاذِبِ الْعَبِيدِ فِيمَا افْتَرَى عَلَى اللَّهِ فِي التَّوْحِيدِ" حَكَى فِيهِ هَذِهِ التَّأْوِيلَاتِ بِأَعْيَانِهَا عَنْ بَشْرِ الْمَرِيْسِيِّ بِكَلَامٍ يَقْتَضِي أَنَّ الْمَرِيْسِيَّ أَقْعَدُ بِهَا، وَأَعْلَمُ بِالْمَنْقُولِ وَالْمَعْقُولِ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُتَأَخِّرِينَ الَّذِينَ اتَّصَلَتْ إِلَيْهِمْ مِنْ جِهَتِهِ ثُمَّ رَدَّ ذَلِكَ عُثْمَانُ بْنُ سَعِيدٍ بِكَلَامٍ إِذَا طَالَعَهُ الْعَاقِلُ الذَّكِيُّ: عِلْمَ حَقِيقَةِ مَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلْفُ، وَتَبَيَّنَ لَهُ ظُهُورُ الْحُجَّةِ لِطَرِيقِهِمْ، وَضَعْفِ حُجَّةِ مَنْ خَالَفَهُمْ.))

صدق، الواقع أن من نظر في كلام عثمان بن سعيد الدارمي أدرك حذقه ودقة فهمه وحدة عبارته ووضوحها في الرد على هؤلاء، وقد وفق الله تعالى أن شرحنا كتابه هذا: رد عثمان بن سعيد، وله كتاب آخر اسمه: الرد على الجهمية، وقال ابن القيم رحمه الله عن كتابيه الرد على الجهمية والرد على المريسي ((وكتابه من أجل الكتب المصنفة في السنة وأنفعها وينبغي لكل طالب سنة - واعلموا أن السلف إذا قالوا: سنة. يقصدون بها الاعتقاد - مراده الوقوف على ما كان عليه الصحابة والتابعون والأئمة أن يقرأ كتابيه، وكان ابن تيمية رحمه الله يوصي بھذين الكتابين أشد الوصية ويعظمهما جداً، وفيهما من تقرير التوحيد والأسماء والصفات بالعقل والنقل ما ليس في غيرهما)). هذا كلام ابن القيم رحمه الله، وهذا شاهده من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في الثناء على عثمان بن سعيد وكتابه، فينبغي - فعلاً - لطالب العلم أن يقرأ في كتابي عثمان بن سعيد ليعلم

أن ما يقوله شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره إنما هو مستفاد من كلام عثمان بن سعيد المتقدم الذي كان في زمن البخاري والأئمة الكبار، وقد جمع بين العقل والنقل.

ثم قال: ((ثُمَّ إِذَا رَأَى الْأَئِمَّةَ - أئِمَّةَ الْهُدَى - قَدْ أَجْمَعُوا عَلَى ذَمِّ الْمَرْيَسِيَّةِ وَأَكْثَرُهُمْ كَفَرُوهُمْ أَوْ ضَلُّوهُمْ، وَعَلِمَ أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ السَّارِي فِي هَؤُلَاءِ الْمُتَأَخِّرِينَ هُوَ مَذْهَبُ الْمَرْيَسِيَّةِ تَبَيَّنَ الْهُدَى لِمَنْ يُرِيدُ اللَّهُ هِدَايَتَهُ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ. وَالْفَتْوَى لَا تَحْتَمِلُ الْبَسْطَ فِي هَذَا الْبَابِ، وَإِنَّمَا نُشِيرُ إِشَارَةً إِلَى مَبَادِي الْأُمُورِ، وَالْعَاقِلُ يَسِيرُ فَيَنْظُرُ))

نعم أراد رحمه الله أن الأئمة المتقدمون أحمد والشافعي والسفيانين أطبقوا على ذم المريسية لأنهم معتزلة وأشار أن مذهب السلف في الجهمية والمعتزلة - لأن بشر المريسي من المعتزلة - أن منهم من كفرهم ومنهم من لم يكفرهم وأن أكثر السلف كفروهم أو ضللوهم، وأن هؤلاء المتأخرين وهم الأشاعرة كانوا على مذهب المريسية وأن تأويلاتهم مستمدة منها وأن طريقة السلف المتقدمين مخالفة لما هم عليه. وبين رحمه الله أن هذه الفتوى الحموية لا تحتل البسط لكنه يشير إشارات لمبادئ الأمور وينقل نقولات من كلام السلف.

قال رحمه الله: ((وَكَلَامُ السَّلَفِ فِي هَذَا الْبَابِ مَوْجُودٌ فِي كُتُبٍ كَثِيرَةٍ لَا يُمَكِّنُ أَنْ نَذْكَرَ هُنَا إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُ، مِثْلَ كِتَابِ "السُّنَنِ لِلْإِسْحَاقِيِّ، وَالْإِبَانَةِ" لِابْنِ بَطَّةَ، وَ"السُّنَّةِ" لِأَبِي ذَرِّ الْهَرَوِيِّ، وَ"الْأُصُولِ" لِأَبِي عُمَرَ الطَّلْمَنْكِيِّ، وَكَلَامِ أَبِي عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْبَرِّ، وَ"الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ" لِلْبَيْهَقِيِّ، وَقَبْلَ ذَلِكَ السُّنَّةُ لِلطَّبْرَانِيِّ، وَالْأَبِي الشَّيْخِ الْأَصْبَهَانِيِّ وَالْأَبِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَنْدَةَ، وَالْأَبِي أَحْمَدَ الْعَسَالِ الْأَصْبَهَانِيِّ، وَقَبْلَ ذَلِكَ السُّنَّةُ لِلْخَلَّالِ، وَ"التَّوْحِيدُ" لِابْنِ حُزَيْمَةَ، وَكَلَامِ أَبِي الْعَبَّاسِ بْنِ سُرَيْجٍ وَالرَّدُّ عَلَى الْجَهْمِيَّةِ لِجَمَاعَةٍ، وَقَبْلَ ذَلِكَ السُّنَّةُ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَحْمَدَ وَ"السُّنَّةُ" لِأَبِي بَكْرٍ بْنِ الْأَثَرَمِ، وَ"السُّنَّةُ" لِحَنْبَلٍ، وَلِلْمَرْوَدِيِّ^(١)، وَالْأَبِي دَاوُدَ السَّجِسْتَانِيِّ، وَابْنَ أَبِي شَيْبَةَ، وَ"السُّنَّةُ" لِأَبِي بَكْرٍ بْنِ أَبِي عَاصِمٍ، وَكِتَابُ "الرَّدِّ عَلَى الْجَهْمِيَّةِ" لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْجُعْفِيِّ شَيْخِ الْبُخَارِيِّ، وَكِتَابُ "خَلْقِ أَفْعَالِ الْعِبَادِ" لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْبُخَارِيِّ، وَكِتَابُ "الرَّدِّ عَلَى الْجَهْمِيَّةِ" وَكَلَامُ نَعِيمِ بْنِ حَمَادِ الْخَزَاعِيِّ، وَكَلَامُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَإِسْحَاقَ بْنِ زَاهَوِيهِ وَيَحْيَى بْنِ يَحْيَى النَّيْسَابُورِيِّ وَأَمْثَالِهِمْ، وَقَبْلَ هَؤُلَاءِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ وَأَمْثَالُهُ، وَأَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ...))

(١) إذا قيل: الرازي. فالنسبة إلى الري التي تسمى الآن: طهران، وإذا قيل: المرزوي. فإنها نسبة إلى مرو، وإذا قيل: المرودي. فهي نسبة إلى مرو الروذ.

الشيخ أشار إلى هاهنا إلى نحو ثلاثين مصدرًا من المصادر المحفوظة التي كانت بين يديه لأئمة السلف وتقريراتهم للعقيدة في أسماء الله تعالى وصفاته وغيرها، والواقع أن كل اسم من هذه الأسماء يحتاج إلى وقفة وبيان، لكن لا يتسع الوقت لذلك، ومعظمها - بحمد الله - مطبوع متوفر، والشيخ رحمه الله أشار إليها على سبيل الإجمال والعد، وهي بحمد الله متاحة لمن طلبها ومتوفرة. . والمقصود أن هذه الأمور ظاهرة واضحة بحيث لا تخفى ولا يزايد أحد على كلام السلف.

ثم قال: ((وَعِنْدَنَا مِنَ الدَّلَائِلِ السَّمْعِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ مَا لَا يَتَّسِعُ هَذَا الْمَوْضِعُ لِدِكْرِهِ، وَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّ الْمُتَكَلِّمِينَ لَهُمْ شُبُهَاتٌ مُوجُودَةٌ، لَكِنْ لَا يُمَكِّنُ ذِكْرُهَا فِي الْفَتْوَى، فَمَنْ نَظَرَ فِيهَا وَأَرَادَ إِبَانَةَ مَا ذَكَرُوهُ مِنَ الشُّبْهِ فَإِنَّهُ يَسِيرُ.))
يعني مراده رحمه الله بأن من منهجه في هذا الكتاب بيان ما عليه السلف رحمهم الله ويعلم أن للمتكلمين شبهات لكنه بين بأنه ليس من منهجه في هذه الرسالة المناقشة التفصيلية لشبهاتهم لكن من كان لديه إشكال فليسال ويبين له ذلك، ولشيخ الإسلام نقد هذه المقالات كما في العقيدة الأصفهانية ونقد التأسيس لكنه هنا أراد أن يحكي مقالة السلف.

قال رحمه الله: ((وَإِذَا كَانَ أَصْلُ هَذِهِ الْمَقَالَةِ -مَقَالَةَ التَّعْطِيلِ وَالتَّأْوِيلِ- مَأْخُودًا عَنِ تَلَامِذَةِ الْمُشْرِكِينَ، وَالصَّابِئِينَ، وَالْيَهُودِ، فَكَيْفَ تَطِيبُ نَفْسُ مُؤْمِنٍ بَلْ نَفْسُ عَاقِلٍ أَنْ يَأْخُذَ سُبُلَ هَؤُلَاءِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ، وَيَدْعَ سَبِيلَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشَّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ.))

إي والله حق له أن يعجب، كيف يطيب لنفس إنسان أن يأخذ هذا الغناء المستمد من كلام اليهود والصابئين ويترك ما عليه أبناء الصحابة والتابعين وقد قال ربنا عز وجل: ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ (النساء ١١٥)، فليس ثمة إلا سبيل المؤمنين أو سبيل المجرمين { وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } (الأنعام ٥٥) فيجب استبانة سبيل المجرمين كما يجب استبانة سبيل المؤمنين، لأنه كما قيل:

وبضدها تتبين الأشياء.

فلا تطيب نفس مؤمن بالقبول والرضا بمقالة هؤلاء المعطلة الذين أخذوا مقالاتهم من أفراس اليهود والنصارى والصابئين ويزهد بكلام الصحابة والتابعين.

هذه مقدمة هذه الرسالة، ثم إن الشيخ سيدخل بعد ذلك في البحث التفصيلي في هذه المسألة.

والله أعلم. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.